قصص عالمية



«الشيء الصغير»

تأليف الكاتب الفرنسي الكبير

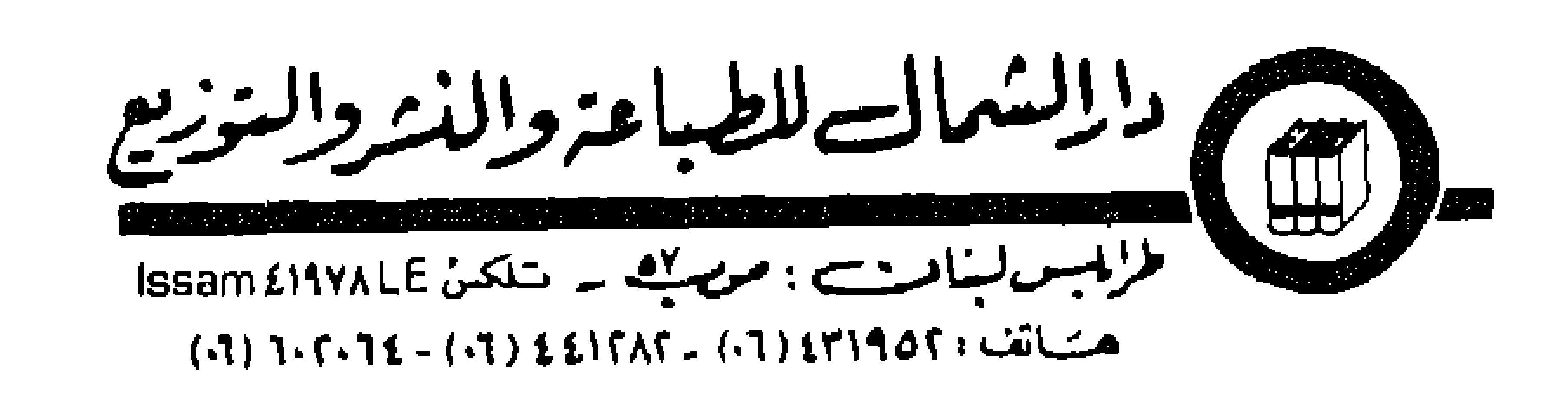
الفونس دوديه

أشرف على التعريب

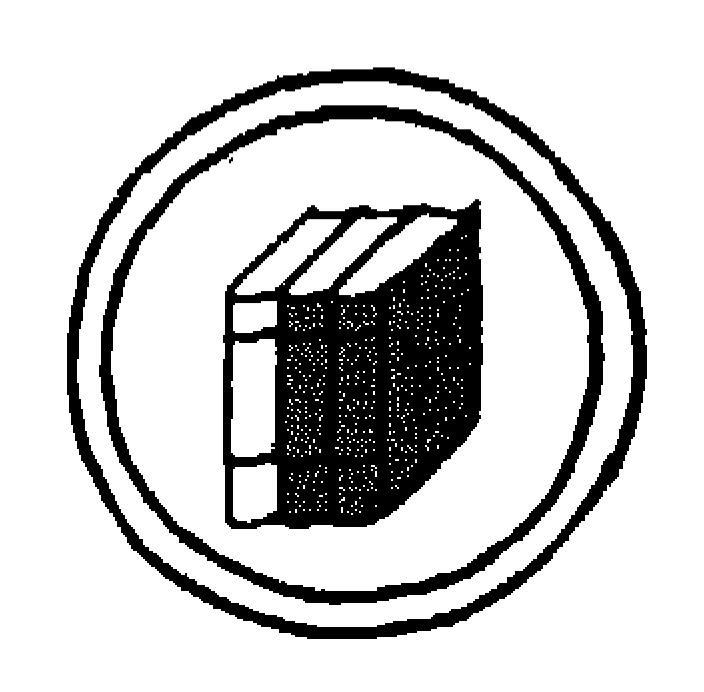
ناصر عكاري

مراجعة

سيف الدين الخطيب



دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع
طرابلس لبنان: ص.ب ٥٧ - تلكس Issam ٤١٩٧٨ LE
هاتف: ٤٣١٩٥٢ (٠٦) - ٤٤١٢٨٢ (٠٦) - ٦٠٢٠٦٤ (٠٦)



دار الشمال
للطباعة والنشر والتوزيع
طرابلس - لبنان - فاكس : ٦٠٢٠٦٤ - ٦ - ٩٦١
التل - عرجة سنتر : ٤٣١٩٥٢ - ٦ - ٩٦١
المعرض - بناية لا سيتيه : ٦٠٢٠٦٤ - ٦ - ٩٦١
الصاغة : ٤٤١٢٨٢ - ٦ - ٩٦١
خليوي : ٠٣/٢٦٣٤٠٠

الطبعة الثانية
١٩٩٦

المَصنَع

ولدتُ في الثّالث عشر من أيار ،عـام ١٨٠٠ ، في إحـدى مُدُنِ «لانجدوك». وكما هي الحالُ في سائرِ مدنِ الجنوب، فإنّ المرءَ يجدُ فيها كثيراً من الشمس وقدْراً كافياً من الغُبارِ بالإضافةِ الى اثريْنِ رومانيّيْن او ثلاثة.

كان والدي السيد «ايسّات» يصنعُ انسجةً ويبيعها، وكان مصنعهُ يقعُ عندَ مخرجِ المدينة. . أمّا نحن فكنّا نسكنُ منزلاً مريحاً تحيطُ به حديقةٌ كبيرة.

هناك ولدتُ وأمضيتُ سنينَ عُمري الأولى.

وهنا ارى لِزاماً عليَّ أنْ اقولَ إنَّ ولادتي لم تحمل السّعادةَ لأُسرتي، إذ اختفى اهمُّ زبـونٍ لوالـدي في ذلك اليوم وكان مديناً له بمالٍ كثير.

لـم يكن والدي يدري أيضحكُ لولادتي أمْ يبكي اسفاً على الزّبونِ الذي ذهبَ بمالِه.

ومنذُ تلك اللّحظةِ لم يَعُدِ المصنعُ يعملُ كالسّابق، فرحل العمالُ واحداً تلو الآخر، ولم يبقَ بعد عامَيْن سوى والدي ووالدتي وطاهيتنا العجوز «أنّو» وأخي «جاك» وأنا.

لقدِ انتهى الأمرُ ولم يبقَ لدينا مال.

كان عُمري عندئذٍ ستُّ سنواتٍ أو سبعاً، ولم أكُنْ اذهبُ الى المدرسةِ لأنّني لم أكن قوياً بالقدْرِ الكافي. لذا علّمتني أُمي القراءَةَ والكتابةَ فقط.

كان بوُسعي آنئذٍ أنْ ألهو في المصنعِ المُغلق، وكنتُ اقولُ لرفاقي:

ـ إنّ المصنعَ لي فقد أَعطوني ايّاه لألعب. وكانوا يُصدّقونني.

كان «جاك» هو الآخرُ أصغرَ من أنْ يفهم، فلم يكنْ يكبرُني بأكثر من سنتيْن. وكان يبكي دون توقُّف. كان يبكي صباحَ مساء، وليلَ نهار، في الصفِّ وفي البيتِ وفي النّزهة، كان يبكي دائماً وفي كل مكان.

وعندما كان يُسأل: «ما بِكَ؟» كان يُجيبُ باكياً: «ليس بي شيء». والأعجبُ من ذلك أنّه لم يكنْ به شيء وكان ابي

يقولُ لأمي:

ـ أُنظري اليه، إنّه نهرٌ من الدّموع.

فتجيبُ أمّي:

ـ ما الذي تُريدُه يا صديقي؟ سوف يزولُ هذا الأمرُ عندما يكبرُ فعندما كنتُ بسنّه كنتُ مثلَه.

لكنّ «جاك» كان يكبرُ، ويكبرُ كثيراً دون أنْ يزولَ ذلك عنه، بل بالعكس.

أمّا انا فلقد كنتُ سعيداً، العبُ لعبةَ «روبنسون» مع رفاقي في المصنعِ المُغلق.

كان لي أخٌ آخر، لكنّه كان اكبرَ بكثيرٍ ولم يكنْ يعيشُ معنا.

ذاتَ يومٍ قال لنا والدي إنَّ المصنعَ قد بيع وإنّنا سنرحلُ الى «ليون» خلالَ شهر.

خُيِّلَ إليّ حينئذٍ أنّ السّماءَ تسقطُ فوقَ رأسي وأمضيتُ الشّهرَ أتنزّهُ حزيناً وحيداً في المصنع. لم أَعُدْ افكّرُ باللّعب، بل كنتُ اجلسُ في كلِّ الزّوايا، أَنظرُ الى الأشياءِ حولي وأتحدّثُ إليها كما أتحدّثُ للأشخاص.

كانت هناك في نهايةِ الحديقةِ شجرةٌ ذاتُ ازهارٍ حمراءَ قلتُ لها:

ــ أعطني واحدةً من أزهارِك.

اعطتنْي ايّاها فوضعتُها على صدري وكنتُ في مُنتهى التّعاسة.

وأخيراً حلَّ يومُ الرّحيل، وكان والدي موجوداً في ليون منذُ أسبوع، فرحلتُ مع والدتي وأخي والعجوزِ «أنّو». كانت هذه الأخيرةُ تسيرُ خلفَ والدتي حاملةً مظلّةً زرقاءَ ضخمةً وهي تهتمُّ بأخي جاك. كنتُ انا اسيرُ في المؤخرة وألتفتُ بعد كلِّ خطوةٍ باتجاهِ بيتنا العزيز.

كان ذلك في الثلاثين من ايلول ١٨٠٠.

الصَّراصير

يُخيّلُ إليَّ أنَّ تلك الرحلةَ على نهرِ «الرّون» كانتْ بالأمس. فأنا لا أزالُ أرى المركبَ ومُسافريه وأسمعُ صوتَ عجلاتِه وصفيرَ آلاتِه. إنّ المرءَ لا ينسى تلك الأشياء.

استغرقتِ الرحلةُ ثلاثةَ ايامٍ على ظهرِ المركب، ولم أكن انزلُ إلاّ للأكلِ أوِ النّوم. أمّا في الوقتِ الباقي، فكنتُ أذهبُ للجلوسِ بجانبِ الجرسِ الكبيرِ الذي يُقرعُ عند دخولِ المدن. كان نهرُ «الرون» عريضاً جداً.

كان بودّي أنْ يكونَ اعرضَ وأنْ يُدعى البحر. كانتِ السّماءُ ضاحكةً والمياهُ خضراء. في حواليْ نهايةِ اليومِ الثالث، ظننتُ انّ المطر سيهطل، وفي هذه اللّحظةِ قال احدهُم بالقربِ منّي:

ـ هاكم «ليون»

وفي نفسِ الوقتِ قُرع الجرسُ، فلقد كانــتْ تلك مدينـة «ليون». بدأ المسافرونَ بالبحـثِ عن أمتعتِهـم وأخـذ المطـرُ يتساقط.

كان والدي في انتظارنا فعانَقَنا وأمسـكَ بيدِ اخـي وبيديّ قائلاً للمرأتيْن:

ــ إتبعاني.

كنا نتقدّمُ بجهدٍ إذ كان الوقتُ ليلاً، وكان علينا أنْ ننتبه لكلِّ خطوةٍ نخطوها. وصلنا بعدَ قليلٍ الى الطّابقِ الرابعِ من دارٍ قذرةٍ رطبةٍ في شارع «لانتيرن». أُوه! يا لهُ من بيتٍ كئيب! إنّني سأظلُّ اراه طوالَ حياتي. كان الدّرجُ مُزحلقـاً والفنـاءُ اشبهَ ببئر. أمّا البوابُ فلقد كان إسكافياً ايضاً، وكان مصنعهُ يقعُ في الطّابقِ الأرضي.. بالإختصار كانتِ الدّارُ بشعَة.

وفي مساءِ وصولنا، صاحتِ العجوزُ «أنّو» في المطبخ:

ــ الصرّاصير، الّصراصير!

دَخلنـا لِنـرى المطبـخَ مليئـاً بتلك الحشرات: كانــتْ على الجدرانِ وفي الأدراجِ وداخل «البوفيه» وفي كلّ مكان. وكلّما أمعنا فيهـا قَتْـلاً كلّما ازدادت. كانـت تصـلُ من مكانٍ غـير

معروف، فاستلزمَ الأمرُ اقتناءَ هرٍّ للقضاءِ عليها.

كان من الضّروريّ تبنّـي عاداتٍ جديدة، فقـد تغـيّرت ساعاتُ الطّعامِ وأشكالُ أرغفةِ الخبز.

وكنّا نذهبُ، يومَ الأحد، للنّزهةِ على ضفافِ نهرِ الرون، وكنّا نسير، دونَ تفكير، باتجاهِ الجنوبِ فتقول والدتي: يُخيّلُ إليّ أنّ ذلك يُقرّبنا من البلد.

ويغضبُ والدي وينتحبُ جاك طولَ الوقت، أمّا انا فكنتُ أسيرُ كعادتي في المؤخرة.

بعد شهرٍ مرضتِ العجوزُ «انّـو» فاضطررْنـا لإعادتِهـا الى الجنوب. كانت تلك المرأةُ المسكينةُ تكنُّ حباً كبيراً لوالدتي فلم تستطع أنْ تتركَنا وطلبتِ البقاءَ، ممّـا استلـزمَ اقتيادَهـا حتـى المركـب. وعندَ وصولِها الى الجنوب تزوّجتْ.

بعد رحيلِ «أنّو» لم نأخذ خادمةً أُخرى فلقد كنّا شديدي الفقر. كانـتْ زوجـةُ البّـوابِ تصعـدُ لتـرتيبِ البيتِ قليلاً، ووالدتي تقومُ بالطّهي، وجاك يشتري ما نحتاجُه. كنّا نضعُ له سلّةً كبيرةً تحت ذراعِه قائلين:

ــ إشترِ كذا وكذا...

وكان يحسنُ شرَاءَها وهو دائمُ البكاء.

يا لجاك المسكين! إنّه لم يكنْ سعيداً وكان والدي يغضبُ لرؤيتِه دوماً، فكنّا نسمعُ كلَّ النّهارِ هذه العبارة:

ـ جاك! إنّك حمار!

اصغوا الى حكايةِ الجرة: ذات مساء لحظـةَ الجلوسِ الى الطّاولةِ لاحظنا أنه لم تعدْ هناك نقطـةُ ماءٍ في الـدّار، فقـال جاك: «سأذهبُ لإحضارِ بعضِه إنْ أردتم». ثم اخـذ الجـرّةَ الفخّاريةَ الكبيرةَ فهزّ والدي كتفيْه وقال:

ـ إذا كان جاك هو الـذي سيذهـب، فستُـكسر الجـرّةُ بالتأكيد.

قالتْ والدتي:

ـ هل تسمع يا جاك؟ لا تكسرْها وانتبه جيداً.

ـ أوه! عبثاً تقولين له ألاّ يكسِرها لأنّه سيكسرُها مع ذلك.

سأل جاك:

ـ ولماذا تريدُ أنْ اكسرها؟

ـ إنّني لا أريدُ أنْ تكسرَها، بل اقولُ لكَ إنّكَ كاسرُها.

امتنعَ جاك عن الكلامِ وتناولَ الجرّةَ وخرج .

إنقضتْ خمسُ دقائـق ، ثم عشر فلـم يعـدْ جاك وبـدأت والدتي تقلق :

ــ ربمّا حدثَ له امرٌ ما؟

ــ وما الذي تُريدين أنْ يكونَ قد حدث له؟ لقد كسرَ الجرّةَ فلم يعدْ يجرؤ على العودة .

قالها ونهضَ وذهبَ لِيفتحَ الباب . كان جاك واقفـاً امامَـه صُفْرَ اليديْن ، ساكناً دون حراك . وعندما رأى والده شحُـبَ لونُه وقال بصوتٍ ضعيف :

ــ إنّني كسرتُها .

لقد كسرها . .

إنقضى ما يقـربُ من الشّهـرين على وجودِنـا في « ليون» عندما فكّر أبوانا في إرسالِنا الى المدرسة .

إنّ ما اثارَ عجبي عند وصولي الى الكليّة ، إنّنـي الـوحيدُ الذي كنتُ ارتدي بلوزة . ففي ليون لا يلبسُ أبنـاءُ الأغنياءِ بلوزاتٍ بل يُقتصرُ لبسُها على ابناءِ الشارع ، وكنتُ انا ألبس واحدةً منها .

ضحك التّلاميذُ عندَ دخولي الى الصفِّ وقـال أحدهُم: أنظروا، إنّه يرتدي بلوزة!

كشّر الأستاذ، ومنذ ذلك اليوم اخذ يخُاطبني بطرفِ شفتيْهِ ولم يُنادني ابداً باسْمي بلِ كان يقول:

ـ إيه! أنتَ هناك! أيُّها الشّيءُ الصغير!

لقد قلتُ له أنّني أُدعـى «دانيال ايسّـات» وانتهـى الأمـرُ برفاقي أنْ دَعوني هم ايضاً: «الشيء الصغير».

كانتْ للآخرين محَافظ جميلةٌ من الجلدِ الأصفر، ومحابر من الخشبِ طيّبةُ الرائحة، ودفاترُ مجُلدةٌ بالورق المقوّى، وكتـبٌ جديدة، أمّا انا فقد كانْت كُتبي قديمةٌ ممُزقـةً تنقُصهـا احيانـاً بعضُ الصّفحاتِ التي كان جاكْ يُلصقها بشيءٍ من الصّمغ. لكنّه كان دائماً يُكثرُ منه فَتفْسدُ رائحةَ الكتب.

لقد أدركتُ أنّه عندما يلبسُ المرءُ بلوزةً ويُدعى «بـالشيء الصغير» فإنّ عليه أنْ يعملَ ضعفَ عملِ الآخرين كي يكون مثلهم. وهكذا بدأ «الشيء الصغير» يعملُ بكلِّ ما أُوتيَ من شجاعة.

يا للفتى الشجاع! إنّني لا أزالُ أراه شتاءً في غُرفتِه التي لا توجدُ فيها نار، جالساً الى طاولةِ عمله وقد وضع غطـاءً على

ساقيْه. وفي المخزنِ كان يُسمعُ السيد «أيسّات» وهو يُملي رسالة: لقد تلقيّتُ رسالتكَ المؤرّخة في الثامن من الجاري، فيردِّدُ صوتُ جاك نفسَ العبارة.

ومن حينٍ لآخر كان بابُ الغرفةِ يُفتحُ بلطف، فتدخلُ السيدة «ايسّات» وتقتربُ من الغلامِ على رُؤوسِ اصابعِها فتقول.

ــ هل تعمل؟

ــ أجل يا أمّاه

ــ ألاَ تشعرُ بالبرد؟

ــ كلا!

لم يكن ذلك صحيحاً فلقد كان بالعكس يشعرُ بوطأةِ البرد، وعندئذٍ كانتِ السيدة «ايسّات» تجلسُ بقربهِ مع ما تحوكُه، وتمكثُ هناك ساعاتٍ طويلة.

مسكينةٌ السيدة «ايسّات»! لقد كانت تُفكّرُ دائماً في ذلك البلدِ العزيز الذي ستراه لسوءِ الحظِّ عمّا قريب!

لقد مات، فصلّوا من أجله

كان ذلك في يومِ اثنين من شهر تموز.

في ذلك اليوم لعبتُ مع بعضِ الرّفاقِ عند خُروجي من الكليّة، وعدتُ متأخراً الى البيت.

كنتُ خائفاً من ابي وقد اعددتُ قصّةً لشرحِ تأخُّري.

كان هو الذي اتى يفتحُ لي وقال:

ــ لِم تأخرّتَ بالمجيء.

بدأتُ بسردِ قصّتي وأنا ارتجف، لكنّه لم يدعني اكملها بل عانقني طويلاً دون أنْ يقولَ شيئاً.

لم يكن هناك سوى صحنيْنِ على الطّاولة: صحنُ والدي وصحني، فسألت:

ــ وأمّي، وجاك؟

أجابني بصوتٍ عذب:

ـــ لقد رحلتْ والدتُك وجاك، فأخوكَ الكبيرُ مريضٌ جداً.

جلستُ الى الطّاولةِ دون أنْ أنبسَ ببنتِ شفةٍ، فلقد كانت لديّ رغبةٌ في البكاء. وكنتُ أتذكّرُ القصصَ الجميلةَ التي كان اخي الكبيرُ يقصُّها عليّ عندما كان يأتي لِرُؤْيتِنا وأراه مُمدّداً مريضاً.

إنتهينا من الطّعامِ فأضأنا المصباح. وضع والدي كُتُبَه التجاريّةَ الضخمةَ على الطّاولةِ وشرعَ في الحسابِ بصوتٍ عالٍ بينما كان الهرُّ يدور وهو يموءُ حولَ الطّاولة. أما انا فلقد فتحتُ النّافذة وأخذتُ انظر الى الخارج.

كان الوقتُ ليلاً، وكنّا نسمعُ شاغلي الطّوابقِ السُّفلى يضحكونَ امامَ ابوابهم.

كنتُ هناك مُنذُ لحظةٍ أُفكرُ بأمورٍ حزينةٍ عندما سمعْنا قرعَ جرسِ البابِ فذهبتُ لأفتح.

كان هناك رجلٌ واقفٌ يمدُّ لي يدَه بشيءٍ ما.

ـــ إنها برقيّة.

تناولتُ الورقةَ وهممتُ بإغلاقِ البابِ فقال لي الرجل:

ـــ يجبُ أنْ تُوقِّع.

سأل والدي:

ــ مَنْ هناك يا دانيال؟

فأجبت:

ــ لاشـيء، إنّه فقير.
أغلقتُ حينئذٍ البابَ ودخلتُ وقد أخفيتُ البرقيّةَ تحتَ بلوزتي. كنتُ اعرفُ مضمونها لذا لم اشأْ فضَّها.

بقيتُ لحظةً امامَ النافذةِ دون أنْ أتحرّكَ أو أتكلّم ضاماً الى صدري تلك الورقةَ المؤلمة.

اخيراً، ذهبتُ الى غرفتي حيث قرأتُ ويدايَ ترتجفانِ هذه العبارة: «لقد مات، فصلّوا من اجله!»

عدتُ عندئذٍ الى والدي وجلستُ بقربه. كان المسكينُ قد اغلقَ دفاترَه وأخذ يلهو مع الهر. وبيناكنتُ أنظرُ اليه رفع رأسه فنظرَ إليّ ورأى البرقيّةَ فقال فجأةً بصوتٍ قوي:

ــ لقد مات اليس كذلك؟

ارتميتُ بين ذراعيْه وأنا أنتحبُ وبقينا مُتعانقيْن وقتاً طويلاً بينما كان الهرُّ عند أقدامِنا يَلْهو بالبرقيّةِ التي سقطتْ هناك.

يَجِبُ أَنْ نَفْتَرِق

والآن سنقتطعُ خمسةَ اعوامٍ أو ستّةً من حياةِ «الشيء الصغير». فلنْ يخسر المرءُ شيئاً لعدمِ معرفتِه تلك الحقبةِ التي انقضتْ على نفسِ الوتيرة: دُمُوعٌ وفَقْرٌ. بيعتْ حُلى والدتي، وظهرتْ ثقوبٌ في شراشِف الأسرة، وتمزّقتِ البناطيلُ.

في تلك السّنةِ كان «الشيء الصغير» يُنهي دراستَه في الفلسفة. إنّه فتىً كان يحملُ نفسه تماماً على محملِ الجدِّ رغم قصرِ قامتِه وخلوِّ ذقنِه من الشّعر.

ذاتَ صباح، كان ذاك الفيلسوفُ الكبيرُ يستعدُّ للذّهابِ الى المدرسةِ عندما ناداه السيد «ايسات» الى الدكّانِ.

وقال له:

ــ دَعْ كُتُبكَ يا دانيال. فلن تذهبَ بعد الآن الى الكليّة.

شرع السيد «ايسّات» يمشي بخطى عريضةٍ دون أنْ يتكلّم وقد بدا عليه التأثّر. وبعد فترةٍ طويلةٍ من الصمت قال:

ــ يا بنيّ، لديّ نبأٌ سيءٌ اقوله لك، نبأٌ سيءٌ جداً. يجبُ

أنْ نفترقَ، وهذه هي الاسباب.

سُمع عندئذٍ شخصٌ يبكي خلفَ البابِ فصاحَ السيد «ايسّات» دون أنْ يلتفت:

ــ أنتَ حمارٌ يا جاك.

ثم تابع قائلاً:

ــ عندما اتينا الى «ليون» كنتُ اعتقدُ أنّني سأكسبُ بعض المالِ لكنّي خسرتُ كلَّ شيء. والآن سنبيعُ ما تبقّى لنا ثم يذهبُ كلٌّ منّا الى جهةٍ كيّ يكسبَ عيشَه. فوالدتُكَ ستذهبُ الى الجنوبِ عند أخيها، وجاك سيبقى في «ليون» حيثُ وجدَ عملاً. أمّا انا فسأعملُ في شركةٍ لبيعِ الخمر. وأنتَ يا ولدي المسكين، يجب ايضاً أنْ تكسبَ عيشكَ، وسيُعطيكَ أحدُ أصدقائي مكاناً في إحدى المدارس. خُذْ هذه الرّسالةَ واقرأْها.

تناولَ الشّيءُ الصّغيرُ الرسالة.

ــ يجبُ أنْ ترحلَ غداً.

ــ حسناً، سأرحل.

في هذه اللّحظةِ دخلتِ السيدة «ايسات» ووراءَها جاك، فاقتربا كلاهُما من الفتى وقبّلاه دون أنْ يتكلما.

قال السيد «ايسات»:

ــ سنهتمُّ بحقيبتِك وستُسافرُ صباحَ الغدِ بالمركب.

وفي اليومِ التّالي رافقتِ الأُسرةُ كلّها «الشّيءَ الصّغيرَ» الى المركب. صاح والدُه:

ــ كُنْ جاداً.

وأضافتِ السيدة «أيسات»:

ــ لا تمرضْ!

كان بود جاك أنْ يقولَ شيئاً لكنّه لم يستطعْ لشدَّةِ بُكائه. أمّا «الشّيءُ الصّغيرُ» فلم يكن يبكي لأنه فيلسوف.

عندَ وصوله الى مسقطِ رأسه، ذهبَ الفتى لِرُؤيةِ صديقِ والدِه فقال الرجّل الطَّيِّبُ عندما رآه:

ــ يا إلهي: كم هو صغيرا!

كان قصيرَ القامةِ حقاً ويبدو صغيرَ السنِّ ففكّر: «لن يقبلوني!»

تابعَ صديقُ والدِه قائلاً:

ــ إقترب يا فتاي.. فبسنك وقامتِك ووجهِكَ الطّفولي، ستكونُ المهنةُ صعبةً عليك.. لكنْ نظراً للضّرورةِ، ضرورةِ كسْبِ عيشِكَ يا ولدي العزيز، سنفعلُ ما نستطيعُه. سنضعُكَ في البدايةِ في مدرسةٍ صغيرة. ستذهبُ الى كليّةٍ غير بعيدةٍ من هنا، في الجبل.. وستتكلّمُ وتكبرُ وتصبحُ لكَ لحية وعندئـذٍ سوف نرى. ثم أعطاهُ رسالةً الى مُديرِ الكليّةِ وودّعه.

كان الشّيءُ الصّغيرُ مسروراً جداً.

إكسَبْ مَعِيشَتَك

«سارلاند» مدينةٌ صغيرةٌ في الجبلِ تقعُ في بطنِ وادٍ ضيّق. الطقسُ فيها حار عندما تطلعُ الشّمسُ، أمّا عندما تهبُّ الرّيحُ فالبردُ فيها قارس.

في مساء وصولي إليها، كانتِ الرّيحُ تنفخُ والشّوارعُ سوداء مقفرة. في السّاحةِ كان بعضُ الأشخاصِ ينتظرونَ العربةَ وهم يتنزّهون. وبمجرّد نُزولي من العربةِ ذهبتُ الى الكليّةِ دونَ أنْ أُضيِّع دقيقةً واحدةً فقد كنتُ أتعجّلُ البدءَ بعملي.

لم تكنِ الكليّةُ بعيدةً عن السّاحة. عبرتُ شارعيْنِ او ثلاثةَ شوارعَ هادئة، ثم توقّفَ الرّجلُ الذي يحملُ امتعتي امامَ بيتٍ كبيرٍ كان كلُّ شيءٍ فيه يبدو ميّتاً منذُ زمنٍ طويل. قال وهو يقرعُ الجرس:

ـ إنهّا هنا.

دخلنا فوضعَ الرجلُ الأمتعةَ ارضاً وانصرف بسرعة. بعد

بُرهةٍ وصلَ البوابُ وبيدِه مصباح، فاقتربَ منّي قائلاً:

ــ انتَ جديدٌ دون شك؟

لقد كان يعتقدُ انني تلميذ.

ــ لستُ تلميذاً، فلقد أتيتُ لأعمل. قُدني إلى المدير.

فُوجىءَ فرفعَ قبّعته وأدخلني الى مكتبٍ وقال:

ــ إنّ السيد المدير الآن في الكنيسةِ مع التّلاميذِ وعليكَ أنْ تنتظرَ قليلاً.

فجأةً قُرع الجرسُ فقال ليَ البوّاب:

ــ لقدِ انتهت الصّلاةُ فلنصعدْ إلى مكتبِ المدير.

بدتْ لي الكليّةُ كبيرةً جداً. كانتْ هناك ممّراتٌ عديدةٌ وسلالم كبيرةٌ، وكلُّها قديمةٌ مليئةٌ بالدّخان. قرعَ احدَ الأبوابِ فقيل لنا:

ــ ادخل

كان المكتبُ واسعاً وفي نهايتِه كان المديرُ يكتبُ امامَ طاولةٍ على ضوءِ مصباح.

قال البوابُ وهو يدفعُني الى الامام:

ــ سيّدي المدير، هذا هو المعلّمُ الجديد، لقد اتى ليحلَّ محلَّ السيد «ساريار». فأجاب المديرُ دون انْ يزعجَ نفسَه:

ــ هذا حسنٌ.

خرج البوابُ، وبقيتُ واقفاً وسطَ الغرفة. وعندما انتهى المديرُ من الكتابةِ التفتَ نحوي فرفع المصباحَ ووضع نظّارتيْهِ على عينيْهِ ثم قال:

ــ لكنّ هذا طفل! فما الذي يُريدون أنْ افعله بطفل؟

خاف «الشّيءُ الصّغير» وتخيّل نفسه في الشّارعِ دون نقودٍ فمدّ يدَه بالرّسالةِ التي أُعطيتْ له. عندئذٍ قال لي أنّه سيحتفظُ بي لكنّي صغيرُ السنّ جداً لذا فهو يخافُ علي.

كنتُ سعيداً جداً، وكان بودّي أنْ أُقبِّلَ سيادةَ المديرِ عندما سمعتُ صوتَ مفاتيح. إلتفتُّ فوجدتُ نفسي أمامَ رجلٍ طويلٍ نحيلٍ كان قد دخل لِتَوِّهِ: إنّه النّاظرُ العام.

قال له المدير:

ــ يا سيد «فيو»، هاكَ مَنْ سيحلّ محلَّ السيد «ساريار».

إنحنى السيد «فيو» وابتسم لي لكنّ مفاتيحهَ كانتْ تتحرّكُ بخبثٍ وكأنّها تقول:

ــ ذلك الرجّلُ الصّغيرُ يحلُّ محلَّ السيد ساريار!

فَهِمَ السيّدُ المديرُ ما كانتْ تقولُه المفاتيحُ فأضاف:

ــ إنّني متأكدٌ أنّه إذا اراد السيد «فيو» مُساعدةَ المعلِّمِ الجديد، فسيسيرُ كلُّ شيءٍ على ما يُرام.

أجاب السيد «فيو» وهو محتفظٌ بابتسامتِه ولُطفه انّه يودُّ

مُساعدتي، لكنّ المفاتيحَ لم تكنْ راضيةً بل كانت تقول :

ــ إذا تحركت فانتبه!

قال المدير:

ــ ستنامُ هذا المساء في الفندق. . . فكن هنا غداً في السّاعةِ الثامنة. إذهب.

وصلتُ الى الكليّةِ في السّاعةِ الثّامنةِ من صباحِ اليوم التّالي. كان السيد «فيو» واقفاً امامَ البابِ ومفاتيحه في يدِه يُراقبُ وصولَ التلاميذِ فقال لي:

ــ إنتظرْ هنا، وعندما يدخلُ التلاميذُ سأقدِّمُكَ الى زُملائك.

قُرِع الجرسُ فدخل التّلاميذُ الى الصفّ ووصلَ اربعة او خمسة شبّانٍ تتراوحُ اعمارهم بين الخامسة والعشرينَ والثلاثين، سيئو الهندام وهم يلهون. توقفّوا عندما رأوا السيد «فيو» الذي قال لهم:

ــ أيها السادة، هذا هو السيد «دانيال ايسّات» زميلكم الجديد. ثم انصرف باسماً.

كان اطول الشبّانِ وأسمنهم أول المتكلمين، انه السيد «ساريار» الذي سأحلُّ محلّه:

ــ إننا لا نتشابَهُ كثيراً، اليسَ كذلك؟ لكنَّ هذا لا يُؤثّر،

فباستطاعتِنا رغمَ ذلك أنْ نذهبَ لشربِ كأسٍ سويّةً.

عُدنا بعد ذلك الى الكليّة. وبعد بضع دقائقَ قادني السيد «فيو» الى القاعة التي كان فيها تلاميذي وتركني لوحدي. تطلّعتُ حولي وضربتُ الطّاولةَ ضربتينِ قائلاً:

ـ لِنَعملْ أيهُّا السّادةُ لِنَعملْ.

وهكذا بدأ «الشيء الصغير».

الصِّغَارُ

لم يكنْ أُولئكَ الأولادُ خبثاء، بل الآخرون. وهم لم يصيبوني بأيِّ أذى، وكنتُ أُحِبُّهم ولا أُعاقبُهم ابداً، وهل تُعاقبُ العصافير؟ عندما كانوا يتكلّمون بصوتٍ عالٍ كنتُ اصيح: «سكوت!» فيسكتُ الجميعُ خمسَ دقائق.

كان أكبرهُم في الحادية عشرة من العمر.

كنتُ أَقصُّ عليهم قصةً عندما يكونون عقلاء فيغتبطون ويُسارعون بإغلاقِ الدّفاتر وبوضعِ المحابرِ والمساطرِ ومسكاتِ الريشِ في المحافظ، ثم يعقدونَ أَذرعتَهم على الطّاولةِ ويفتحونَ أعيُنهم ويصغون. كان ذلك يُسلي الصّغار كثيراً كما يُسلّيني انا ايضاً. لكنّ السيد «فيو» لم يكن يُحبُّ أنْ نلهو.

وصلَ ذاتَ يومٍ الى صفّنا في اللّحظةِ الأشدِّ إثارةً للاهتمامِ من القصّة فتوقفتُ، ووقفَ السيد «فيو» ينظرُ الى الطاولاتِ الخالية من الكتبِ والدّفاتر. لم يَقُلْ شيئاً لكنّ المفاتيحَ كانتْ

تتحرّكُ بشكلٍ خبيثٍ قلت:

ـ لقد عملَ تلاميذي كثيراً في هذه الأيام، فأردتُ أنْ أكافِئَهم بسردِ قصّةٍ صغيرة. . .

لم يُجبِ السيد «فيو» وخرج، لكنّي فهمتُ انّه لا يحبُّ أن أسردَ قصصاً ولم أعُدْ الى ذلك ابداً.

كان عليَّ أنْ اقودَ التّلاميذَ الى النُّزهةِ مرّتيْنِ في الاسبوع: الأحد والخميس. ولم أكُنْ أُحبُّ مُطلقاً النّزهات. أمّا ما لم أكنْ أحبّه بشكلٍ خاص فهو اجتيازُ البلدِ مع «صغاري». كانوا يمُسكونَ بأيدي بعضِهم البعض ولا يستطيعونَ البقاءَ وراءَ بعضهم. لم أكن أجرُؤُ على النَّظر اليهم.

وفي نهايةِ العامِ طلبَ منّي المديرُ أنْ أعلِّمَ الكبارَ، و.. يجبُ أنْ أتركَ صِغاريَ الأعزّاءَ الذين كنتُ أُحبّهم كثيراً، بينما كان الكبارُ يُخيفونَني.

العيونُ السّودُ

الآن لم يَعُدْ هناك احدٌ في الكليّة، فلقد رحلَ جميعُ التّلاميذ. كان «الشيء الصغير» في غرفتِه تحتَ السطوحِ يصغي الى العصافير تُغرِّدُ على كلِّ الاشجار. لقد بقيَ اثناءَ العُطلةِ، وكان يمضي وقتَه بالدّرس. لكنّ الغرفةَ حارّةٌ جداً والسّقف مُنخفض. الشّمسُ تدخلُ كالنّارِ، وذباباتٌ ضخمةٌ تغفو مُلتصقةً بالزّجاج، و«الشيء الصغير» يحاولُ الاّ ينامَ لكنّ رأسهَ تبدو له ثقيلة. وكيْلا ينام نهضَ وسارَ بضعَ خطواتٍ، وعندما بلغَ البابَ انهار ووقع ارضاً، وحلُم أنّ شخصاً يقرعُ بابَه وأنّ اباهُ هناك.

عندما عاد الى وَعْيِهِ تعجّب لوجودِه في سريرٍ صغيرٍ ابيضَ مُحاطٍ بستائر زرقاء، ولرؤيةِ السيد «ايسّات» ينحني فوقَه والدموعُ في عينيْهِ.

ــ أهذا انتَ يا والدي؟ أهذا حقاً انت؟!

ـ اجل، يا ولدي العزيز، هذا أنا.

ـ أينَ أنا إذن؟

ـ في المستوصفِ مُنذ ثمانيةِ ايام. لقد شُفيتَ الآن، لكنَّ مرضَكَ كان شديداً.

ثم سرَدَ السيد «ايسّات» اخبارَ افرادِ الأسرة، لكنْ لم يكنْ بوسعِه البقاءَ مدّةً أطول، إذ عليه أنْ يعودَ الى عملِه.

حملتْ اليه امرأةُ البوابِ وجباتِ الطّعامِ وقضى أيّامَه يقرأُ امامَ النّافذة. وذاتَ صباحٍ قال: «شكراً يا سيدتي» كعادتِه عندما يحملُ اليه طعامُه. لم يرفعْ عينَيْه عن كتابِه لذا تعجّبَ لسماعِه صوتاً عذباً يسأل:

ـ كيفَ حالُكَ اليوم يا سيد دانيال؟

رفع «الشيء الصغير» رأسه فما الذي رآه يا ترى؟ عينَيْنِ واسعتين سوداويْن، وابتسامةً جذابة!

قالتِ العينانِ السّوداوانِ لصديقهما أنّ زوجةَ البوّابِ مريضةٌ وأنهما يَحلاّن محلّها. ثم اضافتا وهما مُنخفضتانِ أنّهما مسرورتانِ برؤيةِ السيد دانيال بصحّةٍ جيدة، وذهبتا وهما تقولان أنهما ستعودانِ في المساء.

وفي المساءِ عادتِ العينان السّوداوان حقاً كذلك في صباحِ اليومِ التاليّ ومسائه كانِ «الشيء الصغير» سعيداً جداً لمرضِهِ ومرضِ زوجةِ البواب.

حَلُمَ «الشيء الصغير» بالعينين السّوداوين كلَّ ليلة. وكان لديْهِ الكثيرُ ليقولَه لهما، لكنّه عند وجودِهما لم يكن يقولُ لهما شيئاً.

كانتِ العينانِ السّوداوان مُتعجّبتيْنِ كثيراً لهذا الصّمت. وكانتا تُطيلان المكوثَ قُربَ المريض، لكنّ الشيءَ الصّغيرَ لم يتكلم.

احياناً كان يقول: «آنستي..!» فتضيءُ العينانِ السّوداوان وتنظرانِ إليه باسمتيْن. لكنّ «الشيء الصغير» كان يفقدُ صوابَه ويُضيف: «أشكركِ، إنّكِ في مُنتهى الطّيبةِ بالنّسبةِ لي» او «الحساءُ شهيٌّ جداً اليوم!» وعندئذٍ كانتِ العينانِ السّوداوانِ تبدوانِ وكأنهما تقولان: «ماذا! أهَذَا كلُّ شيء؟!» ثم تنصرفانِ بحزن.

وعندما شعر أنّه لن يجرؤ ابداً على التحدثِ إليهما، عزَم على الكتابةِ لهما. وذات مساءٍ طلب حبراً وورقاً لكتابةِ رسالةٍ هامّة... حزرتِ العينانِ السّوداوانِ دون شك أيّةُ رسالةٍ

ستكتب، فهما ذكيّتان جداً، لذا أسرعتا بإحضار الحبر فوضعتاهما امامَ المريضِ وذهبتا وهما تضحكان.

شرع «الشيء الصغير» بالكتابةِ فكتبَ طولَ اللّيل.

والآن انتباه! فالعينانِ السّوداوان ستأتيان.

كان «الشيء الصغير» في غايةِ التأثّر. فسيحدثُ الأمر هكذا تدخلُ العينانِ السّوداوانِ فتضعانِ الطّعامَ على الطّاولةِ وعندئذ يقولُ لهما فوراً: «أيتّها العينانِ السّوداوان العذْبتان، هذه رسالةٌ لكما» لكنْ صه، إنّه يسمعُ وَقْعَ خُطى في الممر. . ألعينانِ السوداوان تقتربان. «الشيء الصغير» يمُسكُ الرّسالةَ بيدِه.

فُتح البابُ. . وبدلا من العينينِ السّوداوينِ دخلتْ زوجةُ البواب.

لم يجرؤ «الشيء الصغير» أنْ يسألَ لماذا لم تعودا فانتظر المساءَ لكنّهما لم تأتيا ايضاً في المساءِ ولا في اليومِ التالي. .

وداعاً أيتُها الأيّامُ الجميلة! هَاهُمُ الأولادُ يعودون، وها هِيَ العودةُ الى المدرسة! كم كانتْ تلك العطلةُ قصيرةً!

الأيَّامُ السَّيئَة

حلَّ الشّتاءُ وكان جافاً وقارساً، فكان منظرُ ملاعبِ الكليّةِ حزيناً بأشجارها الجرداء. كان النّاسُ ينهضون من نومِهم قبلَ طلوعِ النّهار على ضوءِ المصابيح.

إنّه شتاءٌ سيءٌ بالنسبة «للشيء الصغير».

لم اعدْ اعمل، وفي الصفِّ كانتْ حرارةُ المدفأةِ تجعلُني انام.

في ذلك اليوم، الثامن عشر من شباط، هطلَ ثلجٌ كثيرٌ فلم يَعُدِ الأولادُ يستطيعونَ اللّعبَ في الملاعب، بل ظلّوا محبوسينَ يلعبونَ في القاعاتِ بانتظارِ ساعةِ الدّرسِ. وكنتُ انا الذي أُراقبُهم.

كان يبدو عليهم انهم يلهونَ كثيراً برؤيةِ الثّلجِ الهاطِل، لكنّي لم أكنْ اسمعُ الضّجةَ التي يُحدِثونها. كنتُ لوحدي في زاويةٍ والدّموعُ في عينيّ اقرأ رسالةً ولا أرى شيئاً حولي. كانتْ

رسالة من جاك تلقّيْتُها منذُ قليل، صادرةً عن باريس، اجلْ عن باريس وهذا ما كانْت تقولُه:

«عزيزي دانيال

ستدهشُ عندما تتلقّى رسالتي. إنّني في باريسَ منذُ خمسةَ عشرَ يوماً. لقد غادرتُ «ليون» دون أنْ اقولَ شيئاً لأحد. ما الذي تريدُه؟ كنتُ فريسةَ الضّجرِ في تلكَ المدينةِ وعلى الأخصّ منذُ رحيلك.

لقد وصلتُ الى هنا ومعي ثلاثون فرنكاً. لكنّ الحظّ حالفني ودخلتُ كسكرتيرٍ عند سيد عجوز، إنّني اكتبُ ما يقولُه لي وأكسبُ من ذلك مئةَ فرنكٍ شهرياً. إنها ليستْ بالمبلغِ الكبير، لكنّي رغم ذلك أوفّرُ بعضاً منها.

آه يا عزيزي دانيال! كم هي جميلةٌ مدينةُ باريس! إنّني لم اعدْ ابكي الآن على الإطلاق.»

توقّفتُ عن القراءةِ لأنّ عربةً توقّفتْ منذُ قليلٍ امامَ بابِ الكليّةِ وسمعتُ الأولادَ يقولون: «هذا هو القائمقام!».

كان هناك دون شكٍ امرٌ غيرُ عادي، فالقائمقام لم يكن يأتي الى الكليّةِ إلاّ مرّتيْن او ثلاثاً في السنة. لكني في تلك اللحظةِ لم اكن اهتمُّ كثيراً بالقائمقام فتابعتُ قراءةَ رسالةِ اخي

جاك:

«.. انتَ تعلم انَّ والدتَنا الان وحيدة، فيجبُ عليك أنْ تكتبَ لها لأنّ هذا يُسرّها.

لقد نسيتُ أنْ اقولَ لك شيئاً سيُسرّكَ دون شك. لديّ غرفةٌ في الحيِّ اللاّتيني! فكّر قليلاً! إنهّا غرفةُ شاعرٍ حقيقية ذاتُ شبّاكٍ صغيرٍ فوقَ السّطوح، السريرُ ليس عريضاً لكنّنَا سننامُ فيه كلانا اذا لَزِمَ الأمرُ. في إحدى الزّوايا تقومُ طاولةُ عملٍ وأنا متأكدٌ من أنّك لو رأيتَ ذلك لَوَدَدْتَ أنْ تأتيَ معي، وأنا ايضاً أودُّ أنْ تأتي. وبانتظارِ ذلك لا تعملْ اكثرَمّا ينبغي في كليَّتِكَ ولا تمرضْ. اقبِّلك.. اخوكَ جاك.»

يا لجاك الطيّب! كنتُ ابكي وأضحكُ في نفسِ الوقت، كلُّ حياتي، طيلةَ الأشهرِ الأخيرةِ، كانتْ كَحُلُمٍ سّيء. فكّرتُ: لقدِ انتهى الأمر! سأعملُ الآن وسأكونُ شجاعاً كجاك!»

الجزء الثاني

باريس

لَقِيَ «الشيء الصغير» كثيراً من المتاعبِ في الكلية. هزىءَ منه زملاؤُه فقرّر أنْ يرحلَ الى باريسَ ليلحقَ بأخيه جاك.

كان ذلك في الايامِ الأخيرةِ من شباط، وكان الطّقسُ قارسَ البرودة. جلستُ في العربةِ قُرْبَ النّافذةِ كيْ أرى السّماء. لكنْ بعدَ بضعةِ كيلومترات اخذ سيّدٌ مكاني كيْ يجلس قُبالةَ زوجتِه فلم أجرُؤْ على الاعتراض.

استغرقتِ الرّحلةُ يوميْن. ولّما لم يكن لديّ مالٌ او زادٌ فلمْ آكُلْ شيئاً طوالَ الرّحلة. إنّ يوميْنِ دون طعامٍ لَوَقْتٌ طويل! كان لا يزالُ لديّ قطعةُ نقودٍ بفرنكيْن لكنّي كنتُ احتفظُ بها للضرورةِ القُصوى. كان النّاسُ حولي يُكثرونَ من الاكلِ، وكان بين ساقيّ سلّةٌ ثقيلةٌ جداً مملوءةٌ بالزّاد، تُسبّبُ لي تعاسةً كُبرى.

رُغم ذلك، كان «الشيء الصغير» راضياً. كان جائعاً يشعُرُ بالبردِ لكنّه كان يفكّرُ أنّ في نهايةِ الطّريقِ جاك وباريس.

في ليلِ اليوم التّالي وحوالي السّاعةِ الثالثةِ صباحاً، استيقظتُ لأنَّ العربةَ توقّفتْ منذُ قليل. قال جاري:

ــ لقد وصلْنا.

ــ الى اين؟

ــ الى باريس بالتأكيد.

كان جاك ينتظرُ منذُ ساعة. رأيتُه من بعيدٍ يُشيرُ اليّ بذراعيْه الطّويلتيْن، فركضتُ نحوَهُ.

ــ جاك، اخي!

ــ آه! ايها الولدُ العزيز!

قال لي جاك:

ــ لِنَذهبْ من هنا وستأتي غداً لحملِ أمتعتِكَ.

سرْنا مُمسكين بذراعِ بعضنا قاصديْنِ الحيَّ اللاّتيني.

سرْنا طويلاً طويلاً في شوارع سوداءَ ثم توقّف جاك فجأةً عندَ ساحةٍ صغيرةٍ فيها كنيسة.

ــ ها نحنُ في سان جيرمان دي بريه، وغرفتُنا فوق.

كان يسكنُ في البيتِ المُجاورِ للكنيسةِ ونافذتُه تُطلُّ على جرسِها. صحتُ وأنا أدخل:

ـ نار! يا للسّعادةِ!

ركضتُ فوراً الى الموقد لأدفىءَ قدميّ، وأعدَّ جاك الطّاولةَ فبدأنا بالأكل. كم كنّا مُرتاحيْنِ تلكَ اللّيلة في غرفةِ جاك! وفي الجهـةِ الأخـرى من الطّاولـةِ كان جاك قُبالتـي يصـبُّ لي ما أشرَبُه. وفي كلّ مرّةٍ أرفعُ فيها عينيّ كنتُ ارى أنّه ينظرُ اليَّ وهو يضحكُ بهدوء. امّا انا فكنتُ سعيداً بوجودي هنـاك وكنـتُ اتكلّمُ واتكلمُ. كان جاك يقولُ لي: «كلْ إذن!» وهـو يمـلأُ صحني. لكنّي استمرّيْتُ في الكلامِ دون أنْ آكل.

آلام جاك

قصّ جاك ما حدثَ له منذُ غادرَ «الشيء الصغير» ليون.
كان الوقتُ متأخراً والنّارُ الميْتةُ تشيرُ لنا قائلةً «إذهبا للنّوم» والشّموعُ تصيحُ: «الى السرّير الى السرّير.» كان جاك يجُيب: «نحنُ لا نصغي لكِ» ونستمرُّ في الحديث.

إنكم تُدركونَ أنّ ما أسردهُ على اخي يثيرُ اهتمامَه كثيراً، إنها حياةُ «الشيء الصغير» في الكليّةِ، تلكَ الحياةُ الحزينةُ التي تعرفونهَا، قصّةُ الأولادِ والمُضايقاتِ ومفاتيحُ السيد فيو الدائمة الغضب، والغرفةُ الصّغيرةُ تحتَ السّطوح..

كان جاك يُصغي دونَ أنْ يتكلّمَ وقد وضعَ مرفقيْهِ على الطاولةِ ورأسَه بين يديه. وكنتُ أسمعُه يقولُ من وقتٍ لآخر:

ـ يا للصغيرِ المسكين! يا للصغير المسكين!

وعندما انتهيتُ نهضَ فأمسكَ بيدي وقال بصوتٍ هاديء:

- انتَ كما ترى يا دانيال، ولدٌ، ولدٌ صغيرٌ وقد احسنتَ

صُنْعاً بالمجيء اليَّ. وبما أنّ والدتَنا بعيدةٌ جداً فسأحلُّ محلَّها. اتريدُ ذلك؟ سترى أنّي لن أُضايقكَ كثيراً. سأبقى بجانبِكَ وسأمسكُ بيدِكَ. وعندئذٍ بوُسعِك أنْ تكونَ مُطمئناً.

عانَقْتُهُ وأجبتُ قائلاً:

ــ كم أنتَ طيّبٌ يا جاك!

وشرعتُ ابكي دون أنْ استطيعَ التوقّف، تماماً كما كان يفعلُ جاك حينما كنّا في ليون، أمّا اليوم فإنّه لم يبكِ ولن يبكي ابداً.

في هذه اللّحظةِ دقّتِ السّاعةُ السّابعةَ وبدأ نورُ النّهارِ بالتسرّبِ الى الغرفة.

ــ ها هو النّهارُ يا دانيال، يجبُ أنْ ننامَ فَنَمْ بسرعة إنّكَ مُتعبٌ دون شك.

ــ وأنتَ يا جاك؟

ــ أُوه! انا لستُ تعباً. ثم ينبغي أنْ أذهبَ للعملِ وسأعودُ هذا المساءَ في السّاعةِ الثّامنة. أمّا أنتَ فاخرجْ قليلاً عندما تستريح.

تمدّدتُ على السرّير ولم اعُدْ اسمعُ شيئاً. عندما أفقتُ كانت السّاعةُ تُعلنُ الظّهر. فتحتُ النّافذة ونظرت. كانتْ ضجّةُ الشّارع تصلُ إليّ فرغبتُ بالخروج.

«كوكو» البيضاء وسيّدة الطابق الأوّل

في ساحةِ سان جيرمان دي بريه وفي زاويةِ الكنيسةِ الى اليسارِ نافذةٌ صغيرةٌ أشعرُ بالانقباضِ كلّما نظرتُ اليها. إنّها نافذةُ غرفتِنا القديمةِ، وكنتُ جدَّ سعيدٍ في تلكَ اللّحظة.

في الصّباحِ كنّا ننهضُ مع النّهارِ، فيهتمّ جاك فوراً بأعمالِ المنزل، ويذهبُ لإحضارِ الماء، ويكنّسُ الغُرفةَ ويرتّبُ الطّاولة. أمّا انا فلم يكنْ يحقُّ لي أنْ ألمسَ شيئاً. وعندما أسألُ اخي:

ـ هل تريدُ أنْ أُساعدَكَ يا جاك؟

كان يضحكُ ويجيبُ:

ـ أنتَ لا تفكّرُ بذلك يا دانيال. وسيّدةُ الطابقِ الأولّ؟

بهذهِ الكلماتِ كان يُغلقُ لي فمي، وإليكُمُ السّبب:

في الأيّامِ الأُولى لحياتِنا المشتركة، كنتُ انا مَنْ يذهبُ

لإحضارِ الماءِ من الفناءِ في الصّباح ، وكان السكّانُ عادةً ينامون في مثلِ تلكَ السّاعةِ فلا أُصادفُ احداً في السلّم . وذاتَ صباحٍ كنتُ صاعداً مع جرّتي المْلأى حينماوجدتُ نفسي عندَ الطّابق الأوّل . امامَ سيّدةٍ نازلة ، كانتْ هي سيّدةُ الطّابق الأوّل

كانتْ مُستقيمةَ القامةِ، تسيرُ بتؤدَةٍ، وعيناها مُنخفضتان على صفحاتِ كتاب. بدت لي جميلةً جداً. وعندما مرّتْ بقُربي رفعتِ السيّدةُ عينيْها.كنتُ واقفاً امامَ الحائِط، احمرَ اللّونِ وجرّتي بيدي، خَجِلاً من شعريَ السّيء التّصفيفِ وقميصي المفتوح وجرّتي التي بيدي. نظرتِ السيدةُ إليّ لحظةً وهي تبتسمُ ثم مرّتْ. سردتُ هذه القصةَ لجاك الذي سخر منّي لكنّه اخذَ الجرّةَ في اليومِ التّالي دون أنْ يقولَ شيئاً ونزل. ومنذُ ذلك اليوم اخذ ينزلُ كلَّ صباحٍ لإحضارِ الماء، فتركتُهُ يفعلُ لشدّةِ خوفي من لقاءِ سيّدةِ الطّابقِ الأوّل.

بعدَ الانتهاءِ من اعمالِ المنزل، كان جاك يذهبُ للعملِ فلا اراهُ ثانيةً إلاّ في المساء. وكنتُ اقضي أيّامي وحيداً انظُمُ القصائدَ. لم اكنْ ارى احداً، فَمَنْ ذَا الذي يأتي لرُؤيتي؟ إنَّ احداً لم يكن يعرفُني.

في حواليْ السّاعةِ التّاسعةِ كنتُ اسمعُ صوتَ صعودٍ على

السلّمِ الخشبي الصّغير. إنها الآنسةُ كوكو البيضاء العائدة. وبدْءًا من تلكَ اللّحظةِ كنتُ أتوقّفُ عنِ العملِ، وأفكّرُ بجارتِنا. لم يكنْ بوسعي معرفةُ مَن هِيَ الآنسةُ كوكو البيضاء. حدّثتُ جاك عنها فأجابني:

ــ كيف؟ ألمْ تلتقِ بعدْ بجارتِنا الحسناء؟

لكنّه لم يزد على ذلك. أمّا انا فكنتُ أُفكر: «إنّه لا يريدُ أنْ اعرفَها..»

ذاتَ صباحٍ دخلَ جاك مُسرعاً الى غرفتِنا بعدَ أنْ ذهبَ لإحضارِ الماءِ وقال لي:

ــ إذا كُنتَ تريدُ رؤيةَ جارتِنا.. صَهْ! فهيَ هناك. خرجت. كانت كوكو البيضاء في غرفتِها، وبابها مفتوح. أوه يا إلهي! كانت غرفةً فارغةً تماماً وعلى الموقد زجاجةُ كحول. وفي وسطِ الغرفةِ امرأةٌ نحيفةٌ ذات عينيْنِ كبيرتيْنِ وشعرٍ قصيرٍ مُجعّد. كانتْ ترتدي فُستاناً قديماً احمر. قال لي جاك:

ــ حسناً، كيف تجدها؟

وعندما رأى وجهي بدأ يضحكُ بقوّةٍ ففعلتُ مثلَه وضحكنا بكلِّ قوانا دون أنْ نستطيعَ الكلام.

في هذه اللّحظةِ ظهرتْ رأسٌ كبيرةٌ من البابِ الذي بقيَ مفتوحاً وقالتْ صاحبتُه:

ـ أنتما تَسخرانِ منّي، وهذا ليس بالشّيء الجميل.

فضحكنا اكثر.

ولكيْ يحصلَ جاك على مزيدٍ من المال وجدَ وظيفةَ مُحاسبٍ عندَ تاجرٍ صغيرٍ سيكسبُ عندَهُ خمسينَ فرنكاً اكثر.

قلتُ له:

ـ كيف ستفعلُ للذّهابِ الى «هناك»؟

يجبُ أنْ اقول لكُم انَّ جاك كان قدِ التقى من باريس بـ «بيارّوت» وهو صديقٌ قديمٌ لوالدتي. لكنّه لم يعدْ «بيارّوت» بل اصبح السيد «بيارّوت» وأصبح غنياً ولديْهِ دكّانٌ جميل.

فتحَ بَيته بطيبةِ خاطرٍ لجاك الذي كان يتردّدُ غالباً عليه، وأطْلقنا عليه اسم «هناك». لكنّه اليومَ أجابني بحزن:

ـ سأذهبُ يومَ الأحد.

وعندئذٍ لم يعدْ يذهبُ الى «هناك» إلاّ في يومِ الأحد، لكنّ ذلك كان يُؤلمه جداً. فما هو هذا الـ «هناك»؟ كان بودي أنْ أعرفَه لكنّ جاك لم يكنْ يطلبُ منّي ابداً أنْ أرافقَه. وذاتَ احدٍ قال لي جاك لحظةَ ذهابه لعند «بيارّوت»:

ـ هل ترغبُ بمُرافقتي الى «هناك»؟ إنّكَ ستُسبّبُ لهم دون شك سرُوراً زائداً .

ـ لا يا عزيزي .

ـ إنّه ليس بالتأكيدِ مكانُ اديبٍ يَقْرِضُ الشِّعر .

ـ ليسَ الأمرُ كذلك يا جاك ، إنّه بسببِ ملابسي .

ـ هذا صحيحٌ ، فلم اكنْ أُفكِّرُ بالأمر.

ثم ذهب وهو يبدو مسروراً لعدمِ أَخْـذي معـه. لم يكدْ يصلُ الى اسفلِ السلّم حتى عاد الى الصّعودِ ركضاً وقال:

ـ إذا كان لديكَ حذاءٌ ومعطفٌ فهل تأتي معي يا دانيال لعند «بيارّوت»؟

ـ ولِمَ لا؟

ـ حسنٌ ، إذن تعـال . . سأشتري كلَّ ما يلزمُـكَ ، وبعـدَ ذلك نذهبُ الى هناك.

«بيارّوت»

كانتِ السّاعةُ تُقارِبُ التّاسعةَ عندما وصلنا الى منزلِ «بياروت» وكان على وشكِ إغلاقِ مَتجرِهِ الكائنِ في الطّابقِ الأوّل.

صاح جاك:

ـ يوماً سعيداً يا «بياروت».

رفع «بياروت» عينيْه وعندما رآني بقى فترةً جامداً دون حِراك. فسأله جاك:

ـ هل «كاميل» في الأعلى؟

ـ أجلْ، أجلْ يا سيد جاك... الصّغيرةُ في الأعلى وستُسرُّ بمعرفةِ السيد دانيال. فاصعدا بسرعة.

كان دكّانُ «بيارّوت» كبيراً يبيعُ فيه أواني زُجاجيّةً وصحوناً مكدّسةً حتى السقّف. عَبرْنا الدكّان وكان «بيارّوت» يسكنُ في الطابقِ الرابعِ من البناءِ نفسِه. كانتِ الآنسةُ «كاميل» تبقى

في الأعلى ولا ترى والدها إلاّ في مواعيدِ تناوُلِ الطّعام.

عندما دَخلْنا، كانتِ الآنسةُ «كاميل» تعزفُ على البيانـو، وكانتْ سيّـدتانِ مُسنّتانِ تلعبانِ الـورقَ في إحـدى الـزّوايا. وعندَ رُؤْيتنا نهض الجميع لتحيّتنا فطلبَ جاك من «كاميل» أنْ تستمرَّ في العزْفِ وجلسَ كلٌّ منّـا في طرف. كانـتِ الصّـبيّةُ تعزفُ وتُحدِّثنا في نفسِ الوقت. نظرتُ إليها فوجدتُ أنهّا لم تكن جميلة. قلتُ كلمةً فرفعتْ عينيْـها نحوي، وعندئـذٍ لم أعـدْ أرى سوى عينيْـهـا الواسعتـينِ السّـوْداويْـنِ الّلتيْـن تعرّفتُ عليهما فوراً. إنهما نفسُ العينيْنِ السّـوداوينِ الّلتيْنِ عرفتُهما بين جدرانِ الـكليّـةِ البـاردة. شعـرتُ برغبـةٍ في أنْ أصيح: أيّتُـها العينـانِ السّـوداوان؟ أأَنْتُـما الّلتـانِ أجـدُهُما مُجدّداً في وجهٍ آخر؟!

في هذه اللّحظةِ، فُتـح بابُ الصّالـون ودخـلَ «بيارّوت» فقال: حسناً يا صغيرتي، هل انتِ مسرورة؟ لقد أحضرنا لكِ «دانيال» فكيف تجدينَه؟ إنّه لطيفٌ جداً أليسَ كذلك؟

قُدمَ الشّايُ حوالي السّاعةِ الحادية عشرة، وكانت «كاميل» تروحُ وتجيءُ في الصّالـون، تحمـلُ السـكر وتصـبُّ الحليبَ

والابتسامةُ لا تُفارقُها. وفي هذه اللّحظة رأيتُ العينيْنِ السّوداوينِ من جديد.

اخيراً، حلّتْ ساعةُ الرّحيل.

تنزّهنا ذلك المساء حتى ساعةٍ مُتأخرةٍ بِمُحاذاةِ نهر «السين». كان الطّقسُ جيداً وجاك يُحدثُني عن «كاميل». كان يُحبُّها بكلّ جوارحِه لكنّه يعلمُ أنها لا تُحبّه.

ـ إنها إذنْ تُحبُّ دون شك شخصاً آخر يا جاك.

ـ لا يا دانيال، فقبلَ هذا المساء لم تكن تحبُّ احداً؟

ـ ماذا تعني؟

ـ الجميعُ يحبونك أنتَ يا دانيال...

مسكينٌ! أمّا انا فلقد ضحكت.

الوردةُ الحمراءُ والعَيْنانِ السّوداوان

بعدَ هذه الزّيارةِ الأولى لآل «بيارّوت»، بقيتُ بعضَ الوقتِ دونَ أنْ اعودَ الى «هناك». أمّا جاك فبقيَ يتردّد عليهم كلَّ يومٍ احد. كان يسألُني قبلَ ذهابِه:

ـ إنّني ذاهبٌ الى«هناك» يا دانيال، فهل تذهب؟

وكنتُ أُجيب:

ـ لا يا جاك! إنّني أعمل.

وعندئذٍ كان يمضي بسرعةٍ فأبقى بمفردي.

كنتُ اخافُ العينيْنِ السّوداوينِ وأقولُ لنفسي: «إذا عدتُ لرؤيتهما فأَنت هالِكٌ». لذا لم أُحاول رؤيتها ثانيةً، لكنّ جاك كان حزيناً فسألتُه ذاتَ احد:

ـ ما بالُكَ؟ أليسَ الأمرُ على ما يُرام؟

ـ كلا، ليس الأمرُ على ما يُرام.

ــ ألاَ يريدُ «بيارّوت» أنْ تُحبَّ ابنتَه؟

ــ لا ، ليس الأمرّ كذلك . إنهّا هي التي لا تُحبُّني ولنْ تحبّني ابداً .

ــ هل تحدّثتَ إليها؟

إنّ مَنْ تُحِبُّه لا يتكلّم، لا يحتاجُ للكلام .

قرّرتُ أنْ اذهبَ لرؤيةِ الآنسةِ «بياروت» وأنْ اتحدّثَ بالنيابةِ عن أخي .

لم اقلْ شيئاً لجاك ، وذهبتُ الى «هناك» في اليومِ التالي .

وجدتُ «بيارّوت» جالساً الى الطّاولةِ مع ابنتِه . وعندما دخلتُ قال :

ــ ها هو اخيراً! إنّه سيتناولُ القهوةَ معنا .

كانتِ الآنسة «بيارّوت» في مُنتهى اللّطفِ في ذلك اليوم . تحدّثنا بُرهةً ثم ذهبَ الأبُ الى دكانِه فبقيتُ لوحدي مع «كاميل» .كنتُ على وشكِ التحدُّثِ عن جاك عندما قالتْ لي :

ــ هل الآنسةُ كوكو البيضاء هي التي تمنعُك من المجيء الى أصدقائك؟

لم تكنْ تضحك ، بل كانت حمراءَ اللّونِ كالوردةِ التي في

شَعرها. ولّما لم أُجبْ رفعتْ عينيْها اليّ وعندها بدأتُ الكلامَ عن جاكَ دون أنْ انتظر، فقلتُ لها أنّه طيبٌ وكريم.

كانتْ مُتأثرةً فسقطتِ الوردةُ الحمراءُ الصّغيرةُ من شَعرها عند قدمي. إلتقطتُها ولم اردّها.

ــ إنها ستكون لجاك من قبلِكِ. لجاك، إذا اردتِ.لكنّ العينينِ السّوداويْنِ عادتا فنظرتا اليّ وكأنّهُما تقولان:

«لا! ليستْ لجاك بل لَكَ!» وكانتا تُحسنانِ القول. عندئذٍ قبّلتُ الوردة الحمراء ووضعتُها على صدري.

عندما عاد جاك في ذلك المساء وجدني كالعادة مُنحنياً على عملي. لكنّني عندما خلعتُ ثيابي، انسابتِ الوردةُ الصغيرةُ الحمراءُ الى الارض عند قائمةِ السرير. رآها جاك فالتقطها وأطال النظر اليها. لم اكنْ ادري ايهما اشدُّ احمراراً: الوردةُ ام انا، قال:

ــ انني اتعرَّفُ عليها، فهي من نبتةِ الورد المغروسةِ «هناك» على نافذةِ الصالون.

ثم اضاف:

ـ لم تُعطني واحدةً منها ابداً.

اعتقدُ انه شعر بألمٍ كبيرٍ لكنّه لم يُظهر ذلك.

ومنذُ ذلك اليوم اكثرتُ من التردّدِ على «بيارّوت» وكنتُ اقضي ساعاتٍ عذبة مع العينين السوداوين. كنتُ احملُ معي كتاباً بصورةٍ شبه دائمة، واقرأ قصائد للعينيْنِ السوداويْن فيترقرقُ الدمعُ فيهما.

سَتبيعُ خزفاً

انهيتُ قصيدتي فوجدها جاك جميلةً جداً، لكنّه كان الوحيد الذي وجدها كذلك إذ ضحكَ الجميعُ لِسماعِها.

ذهبتُ الى دارِ«بيارّوت» وكنتُ أُريدُ رؤيةَ العينينِ السّوداويْن. كان السيد «بيارّوت» بانتظاري فقال لي:

ــ إنّ ما أُريدُ أنْ اقوله لك يا سيد دانيال في غايةِالبساطة: الصغيرة تحبك فهل تُحبها أنتَ ايضاً؟

ــبكلّ عواطفي يا سيد «بيارّوت».

ــ إذن، فكل شيء على ما يرام. إنّك والصغيرةُ اصغر من ان تتزوجا قبل ثلاثِ سنوات. لا ادري ما اذا كنت لا تزالُ تفكر بنظْم الشعر لكنني اعرفُ جيداً ما أفعله لو كنتُ في مكانِك. إنّني سأترك قصائدي وأبيعُ الخزفَ مع «بياروت» العجوز.ما رأيك في ذلك؟

قالهاواخذ يضحكُ ويضحك..

كانتِ الصّحونُ والأقداحُ كلُّها ترقصُ حولي وكأنّها تقول لي: «ستبيع خزفاً».

ـ إصعدِ الآن لرؤيةِ الصّغيرةِ فهي بانتظارِك والوقتُ يبدو لها طويلاً، سنتحدّثُ في الأمرِ هذا المساء.

ومنذُ تلكَ اللّحظةِ اختفتِ العينانِ السّوداوانِ ولم نتحدثْ بعدها الا عن الخزف.

قُلت اني سأُعطي ردّي خلال شهرٍ فقال السيد «بياروت»: «إتفقْنا، خلال شهر»

في المساء قصصتُ كلَّ شيءٍ على جاك فلم يرضَ اطلاقاً بل قال:

ـ دانيال، بائعُ خزف! يجبُ أنْ تُؤلّف كتاباً من قصائدك وتبيعَه في كلِّ مكان. وسأهتم انا بالامر.

فعل ما قاله وطبع قصائدي في كتابٍ دُعي «المهزلة الرعوية» وكنا نذهب في المساء انا وجاك لرؤيةِ الكتابِ في واجهةِ المكتباتِ. لكنّ احداً لم يشتره.

خبرٌ مؤلم

وجدَ دانيال عملاً في مدرسةٍ يُعلّم فيها القراءَةَ لأطفالٍ صغار. ومنذُ وقتٍ طويلٍ لم يعدْ الى منزل «بياروت»، إنه يسكنُ مع اخيه في غرفةٍ فندق.

كان ذلك في الرابعِ من كانون الأول.

كنتُ عائداً من المدرسةِ اسرعَ من العادةِ، فلقد تركتُ في الصّباحِ جاك في الغرفةِ لأنه كان تعباً جداً. وعندَ عُبوري الحديقةَ رأيتُ صاحبَ الفندقِ يتحدّث بصوتٍ مُنخفضٍ الى سيّدٍ بدين. ناداني:

ــ يا سيد دانيال.

ثم اضاف مُخاطباً السّيد الآخر:

ــ هذا هو الفتى وأعتقدُ أنّ عليكَ أنْ تقولَ له.

توقفتُ مُتسائلاً عمّا يجري. وبعد لحظةٍ من الصّمتِ قال الرجلُ البدين:

ــ سيدي، إنني طبيب. . وعليّ أنْ اقولَ لك. . .

لم أدَعْهُ يُنهي كلامَه وقلتُ له:

ـ هل رأيتَ اخي؟ أهو مريضٌ حقاً؟

تابعَ الطّبيبُ كلامه:

ـ أعتقدُ أنّه مريضٌ وأنّه لم يعدْ هناك ما نفعلُه: إنّه سيموت.

استدارَ بعد هذه الكلماتِ وانصرف.

بقيتُ لحظةً في الخارجِ كيْ أجفف دمعي ثم دخلتُ الى غرفتِنا فوجدتُ جاك مُمدّداً وقد امتقعَ لونُه. ارتميتُ عندئذٍ على ركبتيَّ بقربه وبكيت. التفتَ جاك إليّ وقال:

ـ هذا انتَ يا دانيال! لقدِ التقيتَ بالطّبيبِ أليْسَ كذلك؟ لقد قلتُ لذلك البدينِ الاّ يُخيفَكَ لكنّي أرى أنّكَ تعرفُ كل شيء... أعطِني يدَكَ يا اخي الصّغير... إنّ صدري يؤلمني... لكنّكَ تعرفُ أنّكَ إذا بكيتَ فلنْ تعودَ لديَّ شجاعة... بعدَ ذهابِكَ هذا الصباح تحقّقتُ من أنّي مريضٌ جداً، فأرسلتُ أستدعي الطّبيب.

لم يستطعِ الكلامَ وقتاً اطول، فأغمض عينيْهِ وبدأتُ اصيح.

ــ جاك! جاك! يا صديقي!

أشارَ إليَّ بيدِه دون أنْ يتكلَّم: «صه، صه!»

فُتح البابُ في هذه اللّحظةِ ودخلَ صاحبُ الفندقِ يتبعُهُ رجلٌ اتّجه بسرعةٍ صوبَ السّرير وهو يقول:

ــ ماذا فعلتَ به؟!

قال جاك وهو يعودُ الى فتحِ عينيْه:

ــ يوماً سعيداً يا «بياروت» يوماً سعيداً يا صديقي! كنتُ واثقاً أنّكَ ستأتي. دَعْهُ يقتربُ يا دانيال فلديْنا ما نتحدّثُ به.

حنى بياروت رأسَه حتى شفتيْ جاك الشّاحبتيْن وبَقيا فترةً طويلةً يتحدثانِ بصوتٍ مُنخفض.

كان الظّلامُ يهبط وأناسٌ يتحدثونَ في الحديقةِ بالخارج ومن وقتٍ لآخر كنتُ اسمعُ السيد «بياروت» يقولُ بصوتِه الضخم:

ــ نعم يا سيد جاك، نعم يا سيد جاك...

لكنّي لم أكنْ اجرؤُ على الاقتراب. وفي النّهايةِ ناداني جاك الى جانِبه قربَ «بياروت»:

ــ إنّني جدُّ حزينٍ لِفراقِكَ يا دانيال، لكنّني لا أتركُكَ

لوحدِكَ «فبيارّوت» باقٍ معك. وسيحلُّ محلّي لديْك...

ــ نعم، نعم، يا سيد جاك. أعِدُكَ بذلك.

ــ انتَ ترى يا صغيري المسكين أنّك لنْ تستطيعَ ابداً العيشَ لوحدِك. لكنّي اعتقدُ انّه إذا ساعَدَك «بياروت» فستصل. اعتقدُ أنّك ستبقى طفلاً طيلةَ حياتِك، لكنْ يجبُ أنْ تكونَ طفلاً صالحاً... إقتربْ كيْ أسرَّ لكَ شيئاً في أذُنِكَ... وعلى الأخصّ لا تُبْكِ العينينِ السّوداويْن.

ارتاحَ برهةً ثم تابع بعدها:

ــ عندما ينتهي كلُّ شيء، اكتُبْ لوالدِك ولوالدتِكَ. لكنْ سيكونُ عليكَ أنْ تُعلمهما تدريجياً بالأمرِ والاّ آلمهما كثيراً. لم أشأ ولا أُريدُ أنْ تأتيَ السيدة «ايسّات» فهذه لحظاتٌ مؤلمة جداً للأمّهات.

منذُ تلك اللّحظة لم أعلمْ جيداً ما الذي حدثَ، إذا لم يتركْ لي اللّيلُ ولا النهارُ التّالي ولا الأيامُ الأُخرى إلاّ القليلَ من الذّكريات.

إنّني الآن وحيدٌ مع «بيارّوت».. أسيرُ بجانبه وقبعتي بيدي. إنّني تعبٌ ورأسي ثقيلةٌ.. ها هو البيتُ اخيراً.. صعدْنا الى منزلِ بياروت دون أنْ ندخل المتجر. خارتْ قوايَ

فِي الطّابقِ الأولِ فجلستُ على الـدّرج دون أنْ استطيعَ الذّهابَ ابعد من ذلك، فرأسي كانت اثقلُ ممّا ينبغي.

أخذني «بيارّوت» عندئذٍ بين ذراعيْهِ وسمعتُ صوتَ الماءِ يسقطُ في الفناء.

إنهّا تمُطر، إنهّا تمُطر! آه، كَمْ تمُطر!

نهايةُ الحلم

«الشيء الصغير» مريضٌ. «الشيء الصغير» سيموتُ. لقد اتى كلُّ الأطباءِ لرؤيتِه وقال الكلُّ أنّه سيموت.

«بيارّوت» لم يعدْ ينامُ والعينانِ السّوداوان تبـكيان. لكنّ الأشدَّ حزناً كان فُستاناً صغيراً اسود، جالساً في إحدى زوايا المنزلِ لا يقولُ شيئاً بل يحوكُ صوفاً والدّموعُ الغزيرةُ تنهمر.

«الشيء الصغير» لا يعرفُ شيئاً، لا يشعرُ بشيءٍ ولا يقولُ شيئاً. انقضـت عدّةُ ايامٍ هكذا، استيقـظَ «الشيء الصغـير» ذاتَ صباح جميل، فابصرتْ عيناهُ وسمعتْ أذناه وعادتِ الحياةُ الى جسدِه الصّغير.

ـــ أين انا يا آلهي؟ ما هذا السرّيرُ الكبير؟ ما هذا الثـوبُ الأسودُ الصّغيرُ الذي يُديرُ ظهره؟ يبدو لي أنّني اعرفُـه!

رفع «الشيء الصغير» جسمَه فشعر بيدٍ تبحثُ عن شفتيْهِ وقال:

ـ يوماً سعيداً يا كاميل .

فوجئتْ كاميل بيارّوت فبقيَ ذراعُها ممدوداً ويدُها مفتوحة .

ـ يوماً سعيداً يا كاميل ، هل ترينني؟

فتحتْ كاميل عينيْها وأجابتْ:

ـ أعتقدُ أنّني اراك .

ـ لقد كان مرضي شديداً، اليس كذلك يا كاميل؟

ـ اجل، يا دانيال، لقد كان مرضُكَ شديداً .

ـ وهل انا هكذا منذَ وقتٍ طويل؟

ـ غداً سيمضي عليكَ ثلاثةُ اسابيع .

ـ انقضت ثلاثةُ اسابيع . . . ثلاثةُ اسابيع . . ! وجاك المسكين . . .

اخفى رأسَه في الوسادةِ وبكى.

ارادت كاميل أنْ يعودَ المريضُ الى النّومِ لكنّه لم يُرِدْ ذلك .

ـ لا تَذهبي يا كاميل، ارجوكِ . . لا تتركيني لوحدي كيف تُريدينَني أنْ انام؟

ـ أجل يا دانيال، يجبُ أنْ تنامَ كما قال الطّبيبُ، فاغمضْ عينيْك وحاول أنْ تنام.

ـ كلمةٌ ايضاً يا كاميل! مَنْ هو ذلك الثّوبُ الاسودُ الصّغيرُ الذي رأيتُه منذُ قليل؟

ـ ثوبٌ اسود .

ـ اجل، ثوبٌ أسودُ كان يعملُ هناك قربَ النّافذة. . . إنّه لم يعدْ هناك الآن. لكنّي رأيتُه منذُ قليلٍ وأنا اكيدٌ من ذلك.

ـ لا يا دانيال، إنّك مُخطىء. . لقد عملتُ هنا طول الصّباحِ لكنْ لم يكن هناك ثوبٌ اسود. إنّني ذاهبة، فنم جيداً.

بقي «الشيء الصغير» بمفردِهِ لكنّه لم ينم. مرّ بعضُ الوقتِ ثم فُتِحَ البابُ ببطءٍ شديدٍ ودخل الفستانُ الأسودُ الصّغيرُ دونَ ضجّة. لكنّ الشّيءَ الصّغيرَ رآهُ فأخذ يصيح:

ـ أمّي، أمّي! لِمَ لا تأتينَ لتقبيلي؟

عندئذ ركض الفستان الأسود باتجاه السرير.

والآن، وقبلَ أنْ نُنهي هذه القصّة، لِندخلْ مرةً أخرى الى صالونِ آل «بيارّوت».

إنّ اليومَ احدٌ، والوقتَ بعد الظّهر. كلُّ العائلةِ هناك و «الشيء الصغير» مُعافى، وقد نهض منذُ قليلٍ للمرّةِ الأُولى.
ألطّقسُ جميل «و «الشيء الصغير» قد جلس امامَ الموقد يتحدّثُ بصوتٍ مُنخفضٍ الى الآنسة «بيارّوت» التي فاق احمرارُ وجنتيْها احمرارَ الوردةِ في شعرها، وسببُ ذلك مفهومٌ فهي جدّ قريبةٍ من النّار. . .
والسيد «بيارّوت» إنّه ليس بعيداً. . فهو قربَ النّافذةِ يرسُمُ.
فما الذي يفعله؟ سنعرفُ ذلك. إنّه يتقدّمُ نحو ابنتِه و «الشيء الصغير» ثم يقولُ لهما فجأةً:
- ما رأيكُما بهذا. . .
يقولُها ويُريهما رسماً كبيراً كتَبَ فيه:

خَزَفٌ وَزجَاجيّاتٌ

مَحَلّ أيّسَات وَبيَارّوت

هذا ما سنكتبُه على بابِ المتجرِ خلالَ بضعةِ شهور. وفي قرارةِ نفسه فكر «الشيء الصغير» مرّة أخيرةً بقصائِده ثم قال:

ـ كُنْ رجلاً أيها الشّيءُ الصّغير!

(تمّت)

أسئلة

١ ــ لماذا قال «الشيء الصغير» أنّ ولادته لم تحمل السّعادةَ لأُسرته؟

٢ ــ كم كان عمر «الشيء الصغير» عندما ترك الجنوبَ باتجاهِ مدينةِ ليون؟

٣ ــ لماذا كانتِ الأُسرةُ تسيرُ باتجاهِ الجنوبِ اثناءَ النّزهة؟

٤ ــ ما الذي اثار اهتمامَ المعلمِ والتلاميذِ لدى دخولِ دانيال المدرسة؟

٥ ــ أيّة مهنةٍ مارس السيد «ايسّات» في ليون؟

٦ ــ لم لمْ يَقُلْ دانيال لوالدِه أنّ ساعي البريدِ يحملُ له برقيّة؟

٧ ــ اصبح آل «ايسّات» اشدَّ فقراً. ما الذي يدلُّ على ذلك؟

٨ ــ ما هو النّبأُ السّيءُ الذي يتوجّبُ على السيد «ايسات» أنْ ينقلَه لأفرادِ أسرته؟

٩ ــ لماذا كان «الشيء الصغير» في غايةِ السّرور؟

١٠ ــ ما الذي اثار دهشةَ البوابِ لدى وصولِ «الشيء الصغير» الى الكليّة؟

١١ ــ مَنْ هو السيد «فيو»؟ هل هو شخصٌ لطيف؟

١٢ ــ مَنْ هم هؤلاء الشبّان الذين تتراوحُ اعمارُهم ما بين الـ ٢٥ والـ ٣٠ سنة الذين قَدِموا الى دانيال؟

١٣ ــ «الشيء الصغير» يحبُّ تلاميذَه. ما الذي يدّل على ذلك؟

١٤ ــ هل كان السيد «فيو» مسروراً من عملِ «الشيء الصغير»؟ لماذا؟

١٥ ــ مَنْ هي صاحبةُ العينيْنِ السّوداويْن؟

١٦ ــ لماذا كان «الشيء الصغير» سعيداً لأنّه وقعَ فريسةَ المرض؟

١٧ ــ فوجيء «الشيء الصغير» لدى قراءتِه رسالةَ اخيه، لماذا؟

١٨ ـ بماذا كان يرغبُ جاك؟

١٩ ــ في أيِّ حيٍّ من باريس تقعُ غرفةُ جاك؟

٢٠ ــ هل كان الشيء الصغير سعيداً بالعيشِ مع اخيه؟ لماذا؟

٢١ ــ لقد تغيرّ جاك عمّا كان عليه في ليون. كيف؟

٢٢ ــ ما هي مهنةُ جاك؟

٢٣ ــ ما هي مهنةُ السيد «بيارو ت»؟

ــ ما هو اسمُ ابنتِه؟

٢٥ ــ لماذا شعر جاك بالحزن عندما غادر منزلَ آل «بيارو ت»؟

٢٦ ــ لماذا عاد دانيال ثانيةً الى «هناك»؟

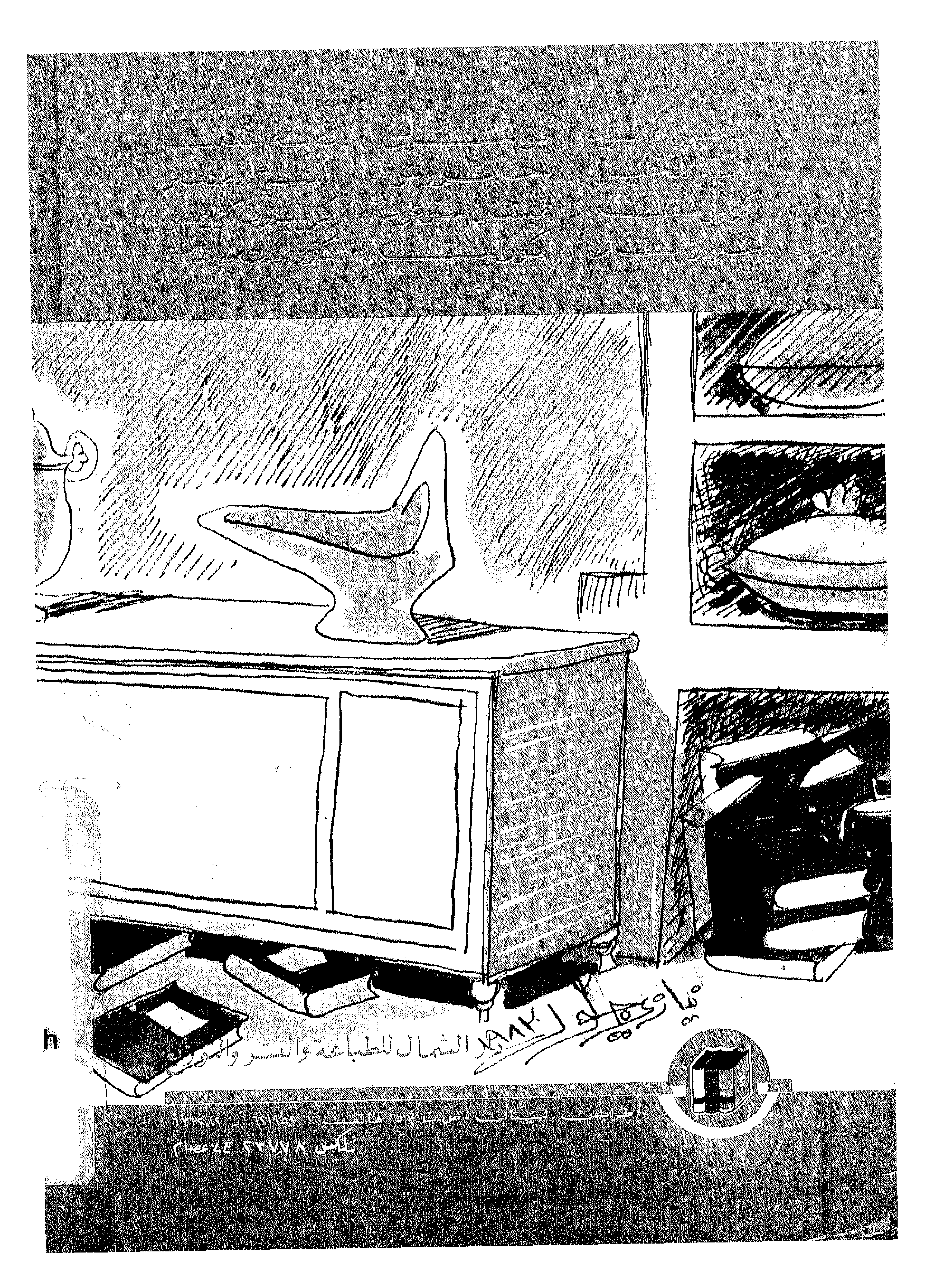
٢٧ ـ ما هو الشّعورُ الذي انتابَ جاك لدى رؤيتِه الوردةَ الصّغيرةَ الحمراء؟

٢٨ ــ أيّ عرضٍ عرضه السيد بيارو ت على «دانيال»؟

٢٩ ــ هل كان جاك مسروراً من هذا العرض؟ لماذا؟

٣٠ ــ أيّة مهنة سيمارسُ دانيال بعد شقائِه؟

٣١ ــ هل كان سعيداً بهذا الحل؟


الشمال للطباعة والنشر
طرابلس - لبنان ص.ب ٥٧ هاتف: ٦٢١٩٥٩ - ٦٣١٩٨٢
تلكس ٤٣٧٧٨ LE عصام